كنا غافلين فاستفقنا . أم مستلقين على ظهورنا فانتصبنا . أم سائرين في مؤخرة موكب الحياة فأصبحنا في منتصفه أو مقدمته ؟ وكيف لنا ، كلّما خطونا خطوة ، أن نعرف هل خطونا إلى الأمام ، أم إلى الوراء ، أم بقينا حيث كنّا ؟

قد يحسب البعض مثل هذه الأسئلة ضرباً من البلاهة أو البلادة . غير أني أسألهم بكل احترام أن يطلعوني على المقياس الذي يقيسون به « التقدّم » لأطلعهم على رأيي في « نهضاتهم ».

إن مسافراً خرج من بيته قاصداً محطة القطار فوصلها يعرف أنّه قد « تقدم » في رحلته ذراعاً أو فرسخاً . فكيف لأمّةٍ أن تعرف أنها « تقدّمت » في سيرها ؟ هل يتم لها ذلك إذا انتقلت من حكم أجنبي إلى وطني ؟ أو من ملكي إلى جمهوري ؟ أو إذا كانت لها مدرسة واحدة فأصبحت لها مدارس ؟ أو معمل فغدت وعندها ألف معمل ؟ أو طيارة أو قطعة بحرية صغيرة فأصبحت وعندها طيّارات وأساطيل لا تُقهر ؟ وبعبارة أخرى — هل إذا بلغت الأقطار العربيّة يوماً شأن الولايات المتحدة أو إنكلترا أو فرنسا أو اليابان تحسب أنها « تقدمت » ؟

إذا كان لما تعودنا أن ندعوه «رقيّاً» أو « تقدماً » من معنى فمعناه يجب أن يقاس بالسعادة الناتجة عنه . ولا مقياس للسعادة ، في نظري ، إلا واحد . وهو مقدار التغلب على الخوف بكلّ